

الدرس السادس: النظرية السياقية

من المتعارف عليه أن الدرس اللساني الحديث، شهد ظهور مدارس ونظريات عدة، تناولت مسألة العلامة اللسانية وغير اللسانية في علاقتها بالمراجع من جهة، وفي علاقتها بالدلالة من جهة أخرى. ومن هذه المدارس نجد المدرسة السياقية أو مدرسة فيرث (Firth) كما يسميها البعض. وهي التي قامت بنقد النظريات السابقة والمعاصرة لها في تحديد المعنى، وخاصة مدارس الاتجاه البنيوي، وذلك لاستبعادهم للمعطيات الخارجة عن اللغة.

أولاً: التعريف بالسياق:

يعرّف السّياقُ، حسب عبد الرحمن بودرع، بأنّه إطارٌ عامٌّ تنتظمُ فيه عناصرُ النّصِّ ووحداته اللّغويّة، وهو عبارة عن مقياس تتّصلُ بوساطته الجُمْلُ فيما بينها وتتربطُ وتتراكبُ، وبيئةٌ لغويّةٌ وتداوليّةٌ ترعى مجموعَ العناصرِ المعرفيّةِ التي يُقدِّمها النّصُّ للقارئ.

وكثيراً ما يردُ الشّـبـه بين الجُمْلِ والعباراتِ مع بعضِ الفوارقِ التي تميّزُ بينها، ولا نستطيعُ تفسيرَ تلكِ الفوارقِ إلّا بالرجوعِ إلى السّياقِ اللّغويِّ، ولحظِ الفوارقِ الدّقيقةِ التي طرأت بين الجُمْلِ. فكلُّ مساقٍ للألفاظِ يجزُّ ضرباً من المعنى بجزئياته وتفاصيله.

والسّياقُ الصّورةُ الكلّيّةُ التي تنتظمُ الصّورَ الجزئيّةَ، ولا يفهمُ كلُّ جزءٍ إلّا في موقعه من «الكلِّ»، وقد أثبتَّ العلمُ أنّ الصّورةَ الكلّيّةَ تتكوّنُ من مجموعةٍ كبيرةٍ من النّقاطِ الصّغيرةِ، المتشابهةِ أو المتباينةِ، تدخُلُ كلّها في تركيبِ الصّورةِ .

ثانياً: التعريف بالنظرية السياقية:

إنّ فكرة العناية بالسّياق (إمّا مراعاة لحال المتكلّم، أو لحال المخاطب، أو للموقف الكلامي بكامله)، كانت محلّ عناية اللّغويين، والبلاغيين العرب القدامى، وهي عند المفسّرين والأصوليين على قدر كبير من الأهميّة؛ لكونه أكثر وسيلة مهمّة من وسائل الكشف عن

المعنى المراد من النصوص الشرعية وأحكامها. فتناوله الفقهاء في كتب الأصول والأحكام، وعرض له البلاغيون في كتب الإعجاز وبديع القرآن... إلخ¹.

وفكرة السياق عند الغربيين، أيضا، لم تكن جديدة تماما، إنما كانت استمرارا لجهود الدرس اللغوي، «ولعلّ من الإنصاف القول بأنّ هؤلاء الغربيين قد صاغوا هذه الفكرة في شكل نظرية قابلة للتطبيق على جميع أنواع المعنى، من صوتية، صرفية، نحوية، واجتماعية. ووضعو لها من المعايير والإجراءات ما يجعلها تقف على قدم المساواة مع بقية النظريات التي تتناول المعنى بالتحليل والتفسير»،² وهي من المساهمات الحقيقية للغويين الإنجليز في مجال الدراسات اللغوية بعامة، والدرس الدلالي على وجه الخصوص.

ثالثا: النظرية السياقية عند فيرث

ارتبطت النظرية السياقية باللساني البريطاني جون روبرت فيرث J.R.Firth (ت1960م)، التي أقامها على عمل وتفكير الأنثروبولوجيين، خاصة على تفكير مالينوفسكي Malinowski³، كما يصرّح هو بنفسه. تقوم هذه النظرية على النظر إلى المعنى بوصفه وظيفة في سياق، ولهذا يصرّح فيرث «بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة»⁴.

¹ ينظر: عبد التّعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية، ص111،163،195،236.

² وردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّليحي، دلالة السياق، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، 1418هـ، 62/1-82.

³ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّليحي، دلالة السياق، ص137.

⁴ ينظر: روبينز-هـ، موجز تاريخ علم اللغة، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، 1988م، ص349،350. وصلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، 2008م، ص380.

⁴ أيمن علي عبد اللطيف، عبقرية النثر العربي، ص184.

وفرق فيرث في نظريته بين خمس وظائف أساسية مكونة للمعنى، وهي⁵:

- الوظيفة الفونولوجية الصوتية

- الوظيفة الصرفية

- الوظيفة المعجمية

- الوظيفة التركيبية النحوية

- الوظيفة الدلالية

وتتحدد كل وظيفة من هذه الوظائف في إطار ما يعرف بمنهج الإبدال، ولا تظهر دلالة الوحدة اللسانية على أي مستوى من المستويات السابقة، إلا بتمييزه السياقي أمام الوحدات الأخرى أن يمكن أن تقع موقعه في ذلك السياق، فإذا لم يكن ثمة بديل سياقي ممكن لذلك الوحدة فلن تكون لها دلالة⁶.

كما وضع فيرث أركاناً ثلاثة يقوم عليها منهجه في دراسة اللغة، وهي:

* **الركن الأول** الذي يقوم عليه تحليل المعنى عند فيرث هو سياق الحال،⁷ أو المقام مع ملاحظة كل ما يتصل به من عناصر وظروف ومناسبات، كشخصية المتكلم والسامع، وثقافتهم، وكل العوامل المرتبطة بالسلوك اللغوي وقت الكلام، وتأثير الكلام على السامعين.

⁵ ينظر: محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بنغازي، 2004م، ص28. ومدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بنغازي، 2004م، ص78-82.

⁶ ينظر: محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص28، 29.

⁷ عبد الهادي بن ظافر الشَّهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بنغازي، 2004م، ص40.

* **الركن الثاني** هو تحديد البيئة اللغوية للكلام، وعدم الخلط بين اللغات أو اللهجات، أو بين المستويات الثقافية والمستويات الاجتماعية، فيجب أن تكون اللغة مقتصرة على مستوى ثقافي واحد، ومستوى كلامي واحد.

* **الركن الثالث** وهو تحليل الكلام إلى عناصره ومكوناته الأولى، باستخدام معطيات فروع علم اللغة المختلفة، من صرف، نحو، أصوات، ومعجم، وهذا في اعتبارهم يؤدي إلى كشف جزء من المعنى، ولكن الدلالة الكاملة لا تتضح إلا من خلال السياق أو المقام.⁸

وانطلاقاً من هذه الأركان التي رسمها فيرث لنظريته، يمكن القول:

- إنَّ الكلمة المعجمية ذات معنى محايد لا يجاوز الصورة التي يشير إليها مجموع أصوات الحروف، وهذا المعنى المحايد هو معنى شكلي.

- إنَّ السياق هو الناظم الذي يعطي للكلمة في ارتباطها بما قبلها، وما بعدها معناها المقصود، أي معناها السياقي.

- إنَّ السياق ليس سياقاً واحداً، إنما هو شبكة علاقات بين عدة سياقات جزئية، تنتج السياق الكلي:

- السياق اللغوي

- السياق الثقافي

- السياق العاطفي

⁸ ينظر: محمد محمد علي يونس، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص184. وعبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص278.

- سياق المناسبة (وهو ما يطلق عليه البنيويون قاعدة المناسبة، وهو أقرب إلى قول القدماء "كل مقام مقال"، فالمقام أو سياق المقام هو المناسبة السياقية التي تقتضي قولاً بعينه، دون غيره من الأقوال).⁹

1-السياق اللغوي: يمكن تعريفه بأنه المحيط اللغوي الذي تقع فيه الكلمة موضع التحليل؛ أي الكلمات التي تكتنف المفردة التي تحتل دلالتها أكثر من معنى؛ ذلك أننا في واقع الأمر لا نحتاج إلى الاستعانة بالسياق إلا في الكلمات التي تحتل أكثر من دلالة، أو بالأحرى في المشترك اللفظي، ويمكن التمثيل لذلك بالفعل قصّ كما في الجمل الآتية:

- قصّ الخياط الثوب.

- قصّ الراعي الأثر.

- قصّ الأديب الرواية.

- حيث تتحدد إحدى الدلالات المعجمية التي يحتملها الفعل وهي: القطع، التتبع والافتقاء، السرد من خلال إحدى الكلمات التي تسبق أو تتلو الكلمة، وهي هنا الفاعل الذي أسند إليه هذا الفعل.

ونمثل لذلك بلفظ العين من خلال الجمل الآتية:

- تجب الزكاة في كلّ عين.

- نشرب الماء من العين.

⁹ طه جابر العلواني، السياق، المفهوم، المنهج، النظرية، مقال، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2007م، ص51،50.

- أرسل القائد عينه إلى معسكر العدو.

- أصابت فلانا عين حاسد.

- أجرى المريض عملية جراحية لعينه.

حيث توجه الكلمات المجاورة في كل سياق لفظ العين إلى إحدى دلالاته المعجمية، ولا شيء غير الجوار اللغوي يمكن أن يحدد الدلالة في هذه النصوص ومثيلاتها.

2- السياق غير اللغوي: وهو أنواع منها:

أ/ سياق الموقف: هو الوضع العام الذي يُؤدَّى فيه الحدث الكلامي مكانا وزمانا وظروفا؛ حيث يوجّه هذا الوضع دلالة المنطوق إلى معنى قد لا يكون من دلالاته المعجمية أو التركيبية، وإنما هو أقرب إلى تواضع جديد يفرضه السياق، وهذه أمثلة على ذلك:

- عبارة "شكرا" تقولها ممتنًا لمن أسدى إليك معروفًا على أصل التواضع والاستعمال.

- وتقولها لمتحدّثٍ أطنب في الكلام، وقد قصدت توقيفه بأدب.

- ويقولها متحدث إعلانًا منه على أنه فرغ من كلامه.

فهي تأخذ دلالتها من سياقها وهو سياق متغير.

وعبارة «رَبِّي يسهِّل» تقولها قاصدا الدعاء بالتسهيل، وتقولها لمتسوّل ألحَّ في السؤال وتكون ضمنيتها معنى: "دعني" ولكن بلطف.

وعبارة "ربي يهديك" تقولها لمن تحب له الخير قاصدا طلب الهداية.

وتقولها لمن قال هُجرا من الكلام وقصدك به، وقد حملت العبارة معنى أتّي لا أنزل بمستوي إلى مستواك، من باب التوبيخ والتفريع.

ب/ السياق العاطفي:

يتحدد معنى السياق العاطفي من حدّي العاطفة وهما منتهى الحُب ، ومنتهى الكره حيث يعكس اختيار المتحدث إحدى المرادفات درجة الانفعال العاطفي المصاحبة للأداء الكلامي، فبين مفردات الحبِّ مثلا ؛ حيث المعنى في "أريد" غيره في "أشتهى" ، وهو في " أعشق " غيره في " أهيم"...، وكذلك الدلالة في "أكره" غيرها في "أبغض" وهي في "أمقت" غيرها في أختيها السابقتين ، وكل اختيار يعكس مستوى من الانفعال العاطفي ، كما أنّ دلالة الفعل " أحبُّ" مقصودا به الذات الإلهية غيره مقصودا به الوالدين ، غيره بين الرجل والمرأة ، وكذا فعل الكره معنيا به الأشخاص غيره وهو معني به الأشياء وهذه الدلالات كلها تحملها العبارة الواحدة وتوجهها السياقات العاطفية المختلفة.

ج/ السياق الثقافي: وممّا يسهم في توجيه الدلالة كذلك السياق الثقافي، وهو مرتبط بثقافة مستعمل اللغة؛ كالمهنة، والطبقة الاجتماعية، ودرجة التحضر أو البداوة، وغير ذلك ممّا يسمُّ المتكلم بخصوصية ذات أثر على الاختيارات اللغوية المتاحة و، ومثال ذلك لفظ " الجذر" نسمعها من أستاذ الرياضيات أو أستاذ اللغة أو نسمعها من عالم النبات، وفي كلّ مرة تأخذ معنى غير المعنى الأول.

أو لفظ «الخطِّ» نسمعها من طالب أو أستاذ، ونسمعها من مسؤول في مديرية الهاتف، أو نسمعها من مسؤول في مديرية النقل؛ وفي كلّ سياق لها معنى.

- إنّ المعنى الشكلي والمعنى السياقي لا ينفصلان انفصالا قطعيا، بل يحددان معا مفهوم

السياق، بوصفه تعبيرا عن نوعين من العلاقة هما:

1-العلاقة بين العنصر والعناصر اللغوية الأخرى.

2-العلاقة بين النص والموقف الذي يتجلى فيه.

ومن اللسانيين الذين نادوا في دراساتهم للدلالة اللغوية، إلى ربط الكلمات بسياقاتها نجد شايز (Chase)، الذي يقول في هذا السياق: «إن الدلالة الحقيقية للكلمة ما يجب أن توجد ضمن ملاحظة ما يمكن أن يصنعه الإنسان بهذه الكلمة»،¹⁰ وتأتي علاقة السياق بالمعنى، من كون العديد من المفوضات لا يمكن تحديد معناها بدقة إلا بمعرفة سياقها الذي وردت فيه، وفي هذا يقول بيير جيرو: «إن الغموض الذي يلف العلامة المتعددة الدلالات يزول حين توضع في سياقها».¹¹

ولأن اللغة بنت بيئتها، فهي أهم مظهر سلوكي، وعقلي يعكس إنسانية الإنسان في هذا الكون، وما كان ذلك إلا لأن ممارسة الحدث اللساني في الواقع، لا تعدو أن تكون تجسيدا للجانب العملي للقدرات العقلية التي يمتلكها الإنسان، والتي من خلالها يحقق نزعتة الاجتماعية، لأن الإنسان بطبعه ميّال إلى التواصل مع أفراد مجتمعه، من حيث إنه كائن اجتماعي.¹² ولأن الكلمة -كما سبق القول- تحمل دلالة اجتماعية، فالمعاني أيضا هي خلاصة تجارب وخبرات الأفراد، مما يؤكد على دور السياق. يقول بالمر: «من السهل أن نسخر-كما يفعل بعض الباحثين- من النظريات السياقية، وأن نستبعدها باعتبارها غير عملية أساسا، لكن من الصعب أن نرى كيف نستبعدها دون إنكار الحقيقة الواضحة القائلة: إن معاني الكلمات* والجمل مرتبطة بعالم الخبرة».¹³

خامسا: ديناميكية السياق

¹⁰ الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص203.

¹¹ علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر، ط1، الدار البيضاء، 2000م، ص39. نقلا عن/ بيير جيرو، السيمياء، سلسلة زدني علما، ط1، 1984م، ص39.

¹² ينظر: أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية -حقل تعليمية اللغات- ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000م، ص68.

¹³ مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، القاهرة، 1997م، ص110.

يرى فان دايك أن الخاصية الأساسية الأولى لبناء السياق هي " الميزة الديناميكية المحركة"¹⁴، وهذا ما يتفق مع توجّه هاليداي (Halliday) وتوماسيللو وأودونيل. أما ميشيل أودونيل (Michael O'Donnel) فقد ميّز بين نوعين من السياق هما السياق الديناميكي أو المتغيّر؛ إذ يتغيّر في السياق في أثناء عملية التواصل، والسياق الثابت الذي لا يتغيّر في التواصل، ونادى بضرورة دراسة السياق المتغيّر، فجميع العناصر التي ذكرها هاليداي ووصفها بأنها من محددات المعنى: الحقل، التوجهات، والنمط تكون عرضة للتغيير، فقد يبدأ الكاتب بطريقة رسمية (Formal) وبالتدريج ينتقل إلى استعمال صياغة غير رسمية، حتى إن المحادثات يمكن أن تبدأ بالكلام وتنتقل إلى استعمال الكتابة¹⁵.

وأما هاليداي فقد نص على ديناميكية السياق بقوله: " إذا كان بإمكاننا أن نغيّر مستوى الرسمية في كلامنا أو كتابتنا، أو أن ننتقل بحرية من نمط سياقي معيّن إلى نمط آخر، فنستعمل اللغة تارة لتخطيط نشاط منظم، وتارة لإلقاء محاضرة عامة، وتارة لتدبير شؤون الأولاد؛ فلأن طبيعة اللغة على شاكلة، بحيث إنّ جميع هذه الوظائف مبنية حسب طاقتها الاستيعابية الكلية"¹⁶.

واقترح أن يفسر النوع المعين من المواقف كتركيب سيميائي (Semiotic Structure) بحيث يمكننا أن نشير إليه على أنه كيان ذو ثلاثة أبعاد: النشاط الاجتماعي المستمر، علاقات الأدوار، الطريقة الرمزية أو البلاغية¹⁷. وتعد هذه الأبعاد الثلاثة الإطار الفهمي الذي يمثل السياق الاجتماعي كبنية سيميائية؛ إذ من خلالها يمكن للأشخاص أن يتبادلوا المعاني¹⁸.

¹⁴ فان دايك، مرجع سابق، ص 258.

¹⁵ عرفات فيصل المنّاع، مرجع سابق، ص 38-39. مأخوذ من: (O'Donnel.M.(1999 :46-66)

¹⁶ يحيى احمد، مرجع سابق، ص 71.

¹⁷ المرجع نفسه، ص 33-34.

¹⁸ المرجع نفسه، ص 34. مأخوذ من: (Gregoy.M and Carroll.S(1978 :87-88)

وأما فان دايك فقد اعتبر الألفاظ متحرّكة بإزاء الأحوال مكوّنة ما عُرف عند مالينوفسكي بـ **سياق الحال**، فليس السياق، كما يقول فان دايك، " مجرد حالة لفظ، وإنما هو على الأقل متوالية من أحوال اللفظ ". ننتبعا من خلال اتجاه مجرى ما تنجم عنها من أحداث في الزمان والمكان المعيّنين.

يقسم فان دايك السياق قسمين من حيث علاقته بالواقع؛ **سياق ممكن (بصيغة الجمع)**، و**سياق فعلي أو واقعي** لها ارتباطات بأوضاع مخصوصة ومقيّد بمعطيات لسانية وغير لسانية، قد تكون متعارضة فيما بينها في الإحالة إلى المعنى المقصود، وهنا أكد ميشيل توماسيللو (Michael Tomasello) على ضرورة الانتباه إلى ما يقصده المتكلّم وما يضعه من **موجّهات** ترجّح كفة عنصر من عناصره على الأخرى، فقد نختر سياقا ما من بين مجموع السياقات المتاحة أمامنا، ونبدأ بتوجيه انتباه المخاطب، فيكون ذلك السياق هو العنصر المشترك بين المتكلّم ومخاطبه أو مخاطبيه.